المثقف الرؤيوي نوري عبد الرزاق (3-3)

خفايا العلاقة مع عرفات وقصة الرسالة الموجهّة له بعد دخول الكويت

نوري عبد الرزاق

عبد الحسين شعبان
بيروت

في الذاكرة والحوار

الحوار مع مثقف رؤيوي مثل نوري عبد الرزاق لا يزوّدك بمعرفة فحسب، بل يفتح أمامك آفاقاً للمستقبل بما يمتلكه من فكر منفتح وتجربة غنيّة وخبرة عملية، وبعد كل ذلك ففيه متعة ، حين تستكشف التاريخ وتقلّب صفحاته بذاكرة خصبة، وتجادل فيه كأنه حاضر وتتّفق وتختلف ، كأنك تضع برنامجاً للمستقبل .حواراتي مع نوري عبد الرزاق متّصلة ومنفصلة، لكنها لم تنقطع منذ أول لقاء لي معه في منزله بالكرادة ببغداد يوم عاد إلى العراق (العام 1969) بعد غربة ثانية دامت ثماني سنوات 1968-1960 وكانت غربته الأولى قد شملت معظم أعوام الخمسينات حتى ثورة 14 تموز (يوليو) 1958 ابتدأها للدراسة في بريطانيا، وبعد فصله بسبب موقفه المناوئ لحلف بغداد، هو ومجموعة من رفاقه ، استقر في القاهرة بعد أن تنقّل في عدد من العواصم الأجنبية والعربية، وفي القاهرة ساهم في تأسيس رابطة للطلبة العراقيين، وأقام علاقات عميقة مع قوى اليسار المصري بتياراته المختلفة.

لاشك أن الترتيبات الأمنية المصرية لم تكن بالمستوى المطلوب، بما فيها كانت حراسة السفارة حينها محدودة، علماً بأن السباعي لم يكن يعتقد انه يمكن أن يتعرّض للاغتيال وكان يمكن أن يقتل بالشارع حيث كان يتمشى دون حراسة كافية أو احتراس يُذكر.

وفي جلسة المؤتمر حصلت مهاترات وشتائم، لكنها انتهت بعد نقاشات طويلة بالتوافق وكان النص الذي صدر باسم الاجتماع عائماً وهو الموافقة على قرارات مؤتمر طرابلس " جبهة الصمود والتصدي" وتأييد حقوق الشعب العربي الفلسطيني وجميع القرارات التي تنتصر لقضيته العادلة والمشروعة. وهكذا انتهى المؤتمر كما يقول نوري.

وفي صباح اليوم التالي اتصل المندوب السوفييتي بنوري عبد الرزاق في غرفته وأبلغه بأن السباعي اغتيل في الفندق الذي يسكنون فيه، واقتيد عدد من الشخصيات الحاضرة في المطعم حينها ما أكّده لي السفير عاطف أبو بكر في حوارات معه أعدّها للنشر في كتاب.

وكان المصريون قد طلبوا من كبريانو إرسال وفد وزاري، لكن الطائرة التي حملت كوماندوز، وكان هدف السادات مهاجمة الطائرة وقتل الخاطفين وإظهار قوة مصر وهي التي اختارت طريق التسوية مع "إسرائيل" في إطار استراتيجية الصلح المنفرد واتفاقيات كامب ديفيد.

وكان هنري كيسنجر مع تقسيم قبرص إلى جزئين، على الرغم من عدم اعتراف العالم بالقسم التركي من الجزيرة، وهكذا تم وصول الكوماندوز بطائرة غير مدنية، وبسيارات جيب تحمل رشاشات وعلى متنها حوالي 30 كوماندوز مصري، نفذوا العملية وانسحبوا، وحاول القبارصة تصوير العملية، وبعضهم اتهم منظمة التحرير الفلسطينية ، في إطار محاولة تأليب السادات، واعتبرت السلطات القبرصية القائم بالأعمال الألماني شخصاً غير مرغوب فيه Personal Non Grata وكان رد الفعل الألماني الديمقراطي حديّاً حيث قطعت العلاقات الدبلوماسية معها.

اختطاف بن بركة

وسألته عن المهدي بن بركة متى تعرّف عليه، فقال في الندوة العالمية لدعم فلسطين، التي أقامها اتحاد طلاب فلسطين في القاهرة وكان رئيس 1965 الاتحاد آنذاك تيسير قبعة وهو الذي رتّب عملية استضافته إلى القاهرة حيث كان محظوراً عليه دخولها في حينها، ويعتبر نوري تلك أعظم ندوة حضرها لدعم حقوق الشعب العربي الفلسطيني، وشارك فيها زعماء ورؤساء سابقين من كل العالم بينهم انطونين وكريشنامنين ومن اسكندينافيا والاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية، إضافة إلى شخصيات غربية داعمة للشعب الفلسطيني، وهناك تعرّف على المهدي بن بركة، وقد عمل معه في لجنة صياغة البيان الختامي، وانضم إليهما نبيل شعث، ويقول نوري عن المهدي بن بركة أن له كاريزما مؤثرة وتعامله كان سلساً جداً، وكان لديه وجهة نظر بشأن بعض مواقف السوفييت.

غلاف الكتاب

وإذا كان هذا الأمر يثير بعض الحساسيات فقد قال في مؤتمر وينباما في غانا حيث كان نيكروما العام 1964 حاضراً، وقد قال المهدي بن بركة أن اللقاء القادم سيكون في بكين (المؤتمر القادم) وهو الأمر الذي أثار السوفييت كثيراً. وقد توقفت علاقته مع نوري ووعده بزيارة براغ ، لكن الخاطفين كانوا له بالمرصاد، واحتفظ نوري مع أسرته زوجته وأولاده سواء في القاهرة أو باريس ، ولاسيّما ابنه بشير بعلاقة طيبة بواسطة عثمان بناني، وحين اختطف المهدي بن بركة شن اتحاد الطلاب العالمي حملة دولية بالتعاون مع اتحاد الطلاب المغربي واتحاد القوات الشعبية.

عرفات وسطوع المقاومة

والحديث عن ياسر عرفات " أبو عمار" ممتع وشائق وغني، فقد تعرّف عليه نوري عبد الرزاق في العام 1956 بعد أن استقر في القاهرة التي جاءها مطروداً من لندن ولم يتمكّن من العودة إلى العراق، ووصلها قادماً من دمشق، وكان قد التقى بالرفيق جورج تلو عضو المكتب السياسي الذي أبلغه بالتوجه إلى القاهرة بتوجيه من سكرتير الحزب الشيوعي " سلام عادل" ، وذلك بعد المؤتمر الرابع لاتحاد الطلاب العالمي الذي انعقد في براغ وكان رئيس الوفد العراقي " الرفيق عبد الرزاق الصافي".

وقد عمل نوري بعد وصوله إلى القاهرة على تأسيس رابطة للطلبة العراقيين والتي ترأسها محمد حسين الملّا، حيث اجتمعوا أكثر من مرّة مع أبو عمار وتوثقت علاقته به . ويذكر نصير الجادرجي في كتابه الموسوم "مذكرات نصير الجادرجي" (دار المدى ، بغداد، 2017) الكثير من المعلومات عن نشاط الطلبة العراقيين في القاهرة التي ذهب إليها لإكمال دراسته الثانوية فيها بعد تعرضه للمضايقة في بغداد.

كما تعززت علاقة نوري مع أبو إياد حيث سافرا بالباخرة سوية إلى موسكو لحضور مهرجان الشباب والطلاب العام 1957 وتقد تعرّف في الباخرة على جلال الطالباني وتوثقت علاقته به بعد ثورة 14 تموز (يوليو) 1958 واستمرت في الخارج أيضاً ، وأتذكّر أن الطالباني اقترحه للانضمام إلى قيادة المعارضة في مؤتمر صلاح الدين العام 1992 لكن ظروفه وموقعه لم يسمحا بذلك، وارتبط بعلاقات خاصة مع قيادتها.

وفي العام 1969 اتصل أبو أياد بنوري في بغداد، وتوجه نوري وعامر عبدالله للقاء به، واستعاد أبو إياد ذكرياته مع نوري وسألهما عن أية مطالب للحزب الشيوعي أو مساعدات ، فشكراه وتمنيا له ولحركة المقاومة النجاح في مهماتها مع أخذ الظروف العربية والدولية بنظر الاعتبار، وأكدا دعم الشيوعيين العراقيين للمقاومة، بغض النظر عن التباين في بعض المواقف.

وكان عامر عبدالله قد ذكر لي أنه عمل على إدراج مبدأ حق تقرير المصير للشعب العربي الفلسطيني في اجتماع الأحزاب الشيوعية والعمالية التحضيري العام 1968 الذي انعقد في بودابست، ثم أدرج لاحقاً وبعد نقاشات في وثائق الحركة الشيوعية العالمية منذ العام 1969. في اجتماعها بموسكو.

وقد زار نوري عبد الرزاق المنظمات الفدائية في الأردن وقابل جورج حبش في منطقة الأغوار ورافقه بسّام أبو شريف، كما عقد جلسة مع نايف حواتمة وحضرها ياسر عبد ربه، ولم يكن نوري متفائلاً بموقف المقاومة في الأردن وازدواجية السلطة، وكان لنوري دور مهم في اقتراح تشكيل "منظمة الأنصار الشيوعية" التي كان الحزب الشيوعي اللبناني داعياً لها أيضاً، وكان ممثلاً الحزب فيها لاحقاً الرفيقين ثابت حبيب العاني وآرا خاجادور كما أشرت في مطالعتي عن آرا خاجادور المنشورة في الزمان بعنوان وطني نقرة السلمان وهويّتي عراقيّة والهوى أممي ، العدد - 5651الخميس 9 شباط (فبراير) 2017.

وكان قد تقرر إرسال وفد يمثل المنظمات العراقية المشتركة ذات التوجه الجبهوي مثل لجنة السلم والتضامن ونقابة المحامين ونقابة المعلمين ونقابة الصحفيين، وغيرها لزيارة مكاتب المنظمات الفدائية في عمّان لإعلان تضامن العراق حكومة وشعباً معها بمبادرة من الرئيس أحمد حسن البكر، وكان ضمن الوفد الشيوعي: رحيم عجينة وبهنام بطرس والفريد سمعان، وقد ضمّت قياديين بعثيين وأكراداً أيضاً، ولحظة وصولهم إلى منطقة المفرق حدثت صدامات أيلول (سبتمبر) الأسود 1970 فالقى نوري عبد الرزاق كلمة في الجيش العراقي حيّا موقفه ودوره الوطني المشهود، وألقى رحيم عجينة كلمة دعا فيها إلى الجبهة الوطنية ، وخلال إلقاء الكلمات كانت قذيفة قد ألقيت على الجيش الأردني، ثم أصبح القصف فوق رؤوسهم .

في العام 1973 تزوج نوري عبد الرزاق من هناء قاسم، وقضى شهر العسل في بيروت، وقد وجه له أبو عمار دعوة كريمة حضرها كمال ناصر وأبو إياد وأم جهاد.

ويستمر نوري عبد الرزاق في سرد علاقته مع ياسر عرفات فيقول: وعند تأسيس حركة المنبر الشيوعي وانطلاقتها (أواسط الثمانينات)، لقيت دعماً من جانب منظمة التحرير الفلسطينية، وبشكل خاص من منظمة فتح وبتوجيه من أبو عمار، وكانت المقاومة الفلسطينية قد قدّمت خدمات جليلة ومساعدات لا تقدّر بثمن لأعداد غفيرة من الشيوعيين العراقيين، وأود شخصياً أن أشير أيضاً إلى الجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية وجبهة النضال الشعبي وعدد من المؤسسات الفلسطينية، وهو ما ينبغي الاعتراف به وقوله من باب الصداقة والاعتزاز، خصوصاً وأن ظروف الهجرة والمنافي كانت قاسية وهي هجرة شبه جماعية منذ أواخر العام 1978 وبداية العام 1979وكان موقف المنبر من الحرب العراقية- الإيرانية قد لقي استحساناً كما يقول نوري عبد الرزاق، ليس هذا فحسب، بل إن كاتب السطور يستطيع أن يدلي بشهادته على هذا الصعيد ، سواء بخصوص فتح وم.ت.ف بشكل خاص أو المقاومة بشكل عام.

كانت لدى كاتب السطور مراسلات مستمرة مع الراحل عرفات في عقد الثمانينات بواسطة سفير فلسطين في براغ سميح عبد الفتاح (أبو هشام) خلال زياراته المتكررة لها، ولاسيّما بخصوص دعم قرار الأمم المتحدة 3379 الذي ساوى الصهيونية بالعنصرية، علماً بأن هذا القرار صدر في العام 1975 كان معرّضاً للإعدام في حملة دولية شرسة ضده قادتها الصهيونية وجهات ممالئة لها، الأمر الذي تنادى عدد من المثقفين العرب لتأسيس لجنة لدعمه تطورت إلى "اللجنة العربية لمناهضة الصهيونية والعنصرية" وكان كاتب السطور أمينها العام منذ العام 1986 إضافة إلى مقترحات أخرى بخصوص الانتفاضة الفلسطينية الأولى وشروط نجاحها بالأساليب اللّاعنفية "انتفاضة الحجارة" وألقى الكاتب محاضرة في براغ بعنوان "الانتفاضة الفلسطينية: وسياقات الأيديولوجي والسياسي".

كما كتب بعيد غزو القوات العراقية للكويت، رسالة خاصة إلى أبو عمار طلب منه أن يبذل جهده لإقناع الرئيس العراقي صدام حسين للانسحاب من الكويت والجلوس إلى طاولة مفاوضات لتسوية الخلافات للحيلولة دون تدمير العراق وتجنيب المنطقة كارثة كبرى، وهو الموقف الذي اتخذته حركة المنبر وعبّرت عنه في صحيفتها التي كان يشرف عليها، ويحتفظ الكاتب بمراسلاته مع الراحل عرفات، وتوجد نسخ عنها في سفارة فلسطين في براغ، وكان أول لقاء لكاتب السطور بـ عرفات خلال زيارته إلى براغ في أواسط السبعينات حين كان رئيساً لاتحاد الطلبة العرب (لجنة التنسيق التي ترأسها). استعدت ذلك مع نوري عبد الرزاق لاستكمال الموقف المشرّف للمقاومة الفلسطينية.

وسألت نوري عبد الرزاق عن دعم م.ت.ف وأبو عمّار لمنظمة التضامن فقال: السوفييت أولاً والمصريون بحكم المقر وأبو عمار وليبيا كانت هي الداعم للمنظمة، وهذه الجهات هي التي أبقت عليها، وخصوصاً بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، وكانت ليبيا تريد نقل المنظمات من القاهرة، لكن الرئيس اليمني علي ناصر محمد، إضافة إلى أبو عمار كانا مع بقائها رغم كل الظروف والتعقيدات، ولاسيّما بعد اتفاقيات كامب ديفيد.

وقد اتخذت المنظمة قراراً تاريخياً كان نوري قد صاغه وبلوره وهو أن تبقى المنظمة في القاهرة وفي مقرّها الحالي الذي ساهم في بنائه طلال أبو غزالة في شارع عبد العزيز آل سعود بالمنيل، ومن يتحفظ على ذلك فيمكن مناقشة الأمر لاحقاً.

الانتفاضة الفلسطينية

وسألت نوري متى كان آخر لقاء أو اتصال لك مع عرفات، فقال حين كان محاصراً (العام 2002) حيث اتصل به تلفونياً، وكان رأي نوري أن الانتفاضة الفلسطينية الثانية التي انطلقت يوم 28/9/2001 لا بدّ من تحديد سقف زمني لها ولا ينبغي استمرارها إلى ما لا نهاية، لأن ذلك سيمكن العدو من إجهاضها وسيقود ذلك إلى التراجع، فأي حركة احتجاج أو مقاومة إن لم تتقدم، فسوف تتراجع وتلك خبرة انتفاضة العام الروسية التي شخّصها لينين، 1905 وكانت تلك قناعة السفير مراد غالب الذي ترأس المنظمة أيضاً.

ويعتقد نوري أن استمرار الانتفاضة الثانية كان كمينا فقد كان أسبوعاً واحداً كافياً للفت نظر العالم وإلّا فإن الحركة ستنحسر، وقد حققت الانتفاضة الأولى العام 1987 منجزاً كبيراً، لولا عملية غزو الكويت وانهيار الكتلة الاشتراكية والاتحاد السوفييتي التي قادت إلى مباحثات مدريد ومفاوضات أوسلو 1993-1991.

لقد جذبت انتفاضة الحجارة الرأي العام بما فيه الإسرائيلي لصالح حقوق الشعب العربي الفلسطيني، وكان ينبغي المراكمة عليها، لولا التبدلات في الوضع العربي وانهيار الحد الأدنى من التضامن وغياب أصدقاء للعرب من الساحة الدولية، وقد أخذ التراجع ما بعد كامب ديفيد ثم الحرب العراقية – الإيرانية وفيما بعد غزو الكويت وانتهاء الحرب الباردة بغياب الكتلة الاشتراكية وكان على الفلسطينيين أن يعرفوا منذ البداية محدودية أوسلو فهو ليس حلاً نهائياً، وقد قال نوري ذلك لأبو عمار.

وسأل نوري ياسر عرفات في العام لماذا أنتم ضد مبادرة الملك :1982 فهد العام 1982 فأجاب أبو عمار بأنه لم يطّلع عليها ، وحين عرف أن تقييم نوري مختلفاً عمّا هو سائد في الشارع قال له أبو عمار: إذا كان الأمر كذلك فأنا أول من يؤيدها.

يعتقد نوري أنه كان على أبو عمار أن يغادر رام الله وألا يبقى أسيراً لدى "إسرائيل" ، خصوصاً بعد ضرب المطار، وخطابه ضد شارون، الأمر الذي يعني إن شروط اللعبة تغيّرت، وهو ما فهمه حسني مبارك خلال زيارته إلى واشنطن والاستقبال البارد الذي قابله فيه بوش الابن، أما حين زار شارون واشنطن فقد فتحت له الأبواب والخزائن وسمع كل ما هو دعم لإسرائيل، وكان رأي بوش بأبو عمار إنه شخص سيئ، ولاسيّما بعد حادث الباخرة.

واستعاد نوري العلاقة مع المقاومة وشخصيات عربية في الثمانينات فقال: إننا كنا نعقد اجتماعاتنا لمناقشة الأوضاع العربية في فيينا بحضور أديب الجادر رئيس اللجنة الاستشارية ومهدي الحافظ أمينها العام، وذلك في وسط الثمانينات واستمر حتى بعيد غزو الكويت، وكان الرئيس أبو مازن يحضر بعضها وكذلك فيصل حوراني ونبيل شعث وآخرين، كما شارك فيها محمد فايق وصلاح الدين حافظ وفاروق أبو عيسى ومن العراقيين مالك الياسري وجعفر عبد الغني وفاضل الجلبي وعبد الحسين شعبان وآخرين.

وبعد غزو الكويت توسعت الدائرة فشملت عراقيين آخرين منهم محمد بحر العلوم ومحمود عثمان ولطيف رشيد وعادل مراد.

للأسف لم يكن الولاء الفلسطيني لفلسطين موحداً، وهو أمر استطاع العدو النفاذ منه، وعلينا أن نلاحظ أن جميع حركات التحرر التي نجحت كانت تقدّم الولاء الوطني وتستفيد من الدعم الإقليمي والدولي، خذ تجربة الفيتنام وتجربة الجزائر مثالاً، فلم يستطع أحد اختراقهما، ورغم استفادة الجزائر من الدعم المصري والدعم المغربي والتونسي والعراقي، لكن الجزائر ظلّت قضيتها جزائرية، والفيتناميون كانوا يعملون بين قطبين متعارضين متناحرين هما موسكو وبكين، ولكن القضية الفيتنامية ظلّت هي الأساس بالنسبة لهم ولم ينخرطوا في المحاور القائمة.

فلسطين معه دائماً

سألت نوري عبد الرزاق عن رأيه اليوم بالقضية الفلسطينية بعد الإحباط الكبير والانقسامات الحادة والصراعات المستمرة، فضلاً عن نكوص الوضع العربي وانخفاض حجم الدعم الدولي، بالرغم من وجود انعطاف عام نحو فلسطين أوروبياً بسبب عدالة القضية، فأشار إلى أهمية إنهاء الانقسام الفلسطيني الذي يستفيد منه العدو، فضلاً عن ضرورة الاستفادة من الدعم العربي رغم تفككه ومن التضامن الدولي رغم الانشغالات المتعددة بقضايا أخرى مثل الإرهاب والعنف وقضايا الهجرة والتعصّب والتطرّف.

وأكّد نوري على أهمية الوحدة الفلسطينية وإعادة الظهير العربي والاستفادة من منظمات المجتمع المدني، كما عملت حركة التحرر في جنوب أفريقيا، وهناك إمكانات كبيرة على هذا الصعيد وأنت كما قال أعرف بها، بملاحقة المرتكبين أو جمع الملفات عن الانتهاكات للاستفادة منها في هيئات حقوق الإنسان لإدانة سياسة "إسرائيل"، سواء فيما يتعلق بالقدس أو الجولان أو محاولات ضم جزء من غور الأردن.

وكذلك يمكن الإفادة من عضوية فلسطين كدولة مراقبة في إقامة دعاوى في المحكمة الجنائية الدولية أو عبر اليونسكو للدفاع عن آثار وتاريخ فلسطين والقدس تحديداً، وأهمية خلق رأي عام جديد ومنسجم مع التطور الدولي.

ولا بدّ من العمل داخل المجتمع الإسرائيلي على الرغم من عنصريته، لكن ثمة جوانب لا بدّ من تعزيزها، فالقائمة العربية لها اليوم 14 مقعداً (نائباً في الكنيست) ومن الذكاء فتحها والتعاون مع "حركة السلام الآن" واليسار الإسرائيلي مثل يوري أفنيري وميرك وغيرهما.

وكم كانت مؤثرة فليسيا لانغر في دفاعها عن الحقوق الفلسطينية في أواخر ستينات وكامل سبعينات القرن الماضي ولابدّ من عزل اليمين المتطرّف الديني وغير الديني مثل كاهانا ونتنياهو والليكود وأحزابهم.

سألته لو عاد بك الأمر كيف تفكر؟ ماذا كان على العرب أن يقرروا بشأن تقسيم فلسطين؟ فأشار إن القرار رغم عدم مبدئيته ، لكنه كان181 يمكن أن يفتح الطريق لقيام دولة فلسطينية يمكن أن تتطور وأن تبلور رؤية جديدة لحلول واقعية مثلاً، وكان رفض الهدنة في رودس العام ألف100يعني رفض عودة 1949 فلسطيني.

ماذا عن الوضع الدولي الجديد: روسيا أين موقعها؟ قال نوري عبد الرزاق لقد فتح بوتين الخطوط مع الجبهات المتناقضة مع سوريا وإيران وانفتح اليوم على الخليج وله علاقة متميزة مع تركيا وله دور في ليبيا، لكنه ينسق في الوقت ذاته مع إسرائيل.

وإذا كان لي أن أختم هذه الحلقات ، فثمة ما يفتح أسئلة جديدة حول رؤية نوري عبد الرزاق إزاء قضايا أكثر راهنية وإلحاحاً، مثل العولمة والثورة الصناعية الرابعة والذكاء الاصطناعي وموقع الحركة الشيوعية اليوم من هذه التطورات الكبرى.

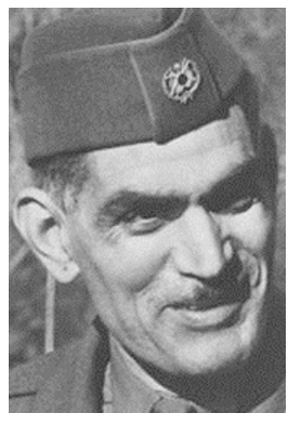
عبد الكريم قاسم

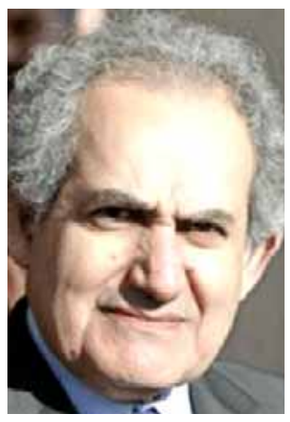
مهدي الحافظ

عبد الرحمن الشرقاوي

يوسف السباعي

اتقوا ناراً وقودها العراق

مذ خلق العراق وطناً وهو ساحة ملتهبة ، وميدان لنزال المتخاصمين ، الجميع يخشى على وطنه ، الا حكام العراق وأصحاب القرار فيه ، الأرض عندهم مباحة ، والشعب وقود ما خلق الا للحرق والقتل والتهجير والتجويع والتشرذم ، ما أصيب بلد بمكروه الا والمال العراقي ينفق ، وما ابتلي وطن بداء الا والجسر الجوي العراقي يمتد ، وما وقع عدوان او حرب على بلد عربي او صديق الا والجسد العراقي اول الموارين الثرا ، عجيب امرك العراق ، اخلقت وأنشأت ووضعت على الخارطة من اجل الذود عن حمى الغير ، والدفع عن كل من أريد به شر ، ويحدثونك عن تاريخ قضى العراق جله حروب وقتال وذود ودفاع وأجساد محمولة على الاكتاف ومال مبدد وأرض محروقة ، قبال شعارات كاذبة زائفة وكلمات راحت منسية في قاموس الوطنية ، الحاكم الوطني من دفع النار عن شعبه والحرب عن ارضه والخراب عن دياره ، الوطني الحق من أعز شعبه وحفظ نفسه واشبع بطنه وشيد بلده وحقق أمنه ، واللافت أن منحنى الخط الوطني البياني العراقي في أنحدار متتابع ، والشعب غائب عنده مغيب ، والجميع يتحدث عن نظرية المؤامرة ، بل هي نظرية الوطنية ، الوطني من حفظ النفس والمال والأرض والعرض ، الوطني من اعز ودفع وعلّم واشبّع وشيّد ، الوطني من استجدى العالم لعز شعبه ، ومن جال البلدان لدفع الخراب عن ارضه ، ومن راح يفتش عن السلم بين الأروقة المفتوحة والعصية من اجل نافذة تحقق للوطن امن وسلام واستقرار .

والملحظ أن حكام العراق ومنذالأيام الأولى لإعلان العراق وطن مستقل يبحثون عن المشكل مرة باسم نصرة البلدان من اجل الاستقلال وأخرى لرد بأس المستبد عن الشعب الشقيق والصديق وثالثة لمنع الاحتلالات ، وكأن العراق ما شُيد وطن الا للذود عن حمى الآخر . أما الانقلابات الداخلية والخلافات البينية والصراعات الشعبوية ، فقد كان العراق من روادها إن لم يكن رائدها ، فتاريخ ممتدى على مدى قرن من الزمان لم يخلو عقد من عقوده من حرب داخلية او خارجية او حركة انقلابية او خلاف سلطوي ، فمتى يبنى البشر والحجر ، ويقيناً أن النفس السلطوية العدوانية لم تكن من مبتكرات العهد الجمهوري إنصافاً ، لكن العهد الملكي كان رائدها بدءاً من انقلاب بكر صدقي 1963 ثم حركة رشيد عالي 1941، وصولاً إلى انقلاب قاسم 1958ثم انقلاب البعث الأول 1963 فردت تشرين 1963 ثم انقلاب البعث الثاني 1968والثالث 1970والرابع 1979الذي ظل حكمه جاثم على صدور العراقيين حتى زال بأبشع صورة على يد الاحتلال ، فنال المحتل شرف ازالة اقسى نظام استبدادي شهده تاريخ العراق والبلاد العربية والإقليم ، وفي كل حراك سلطوي كان الجسد والاقتصاد العراقي وقوده ، ويحدثونك عن زمن الخير ، والوطن السالم السعيد .

ودخل العراق موسوعة كينز في الحرب نيابة عن الآخر ، مرة للذود عن الإقليم في مواجهة الشرق الذي هدد ، ويقيناً أن لا وجود للتهديد الا في مخيلة الديكتاتور المستبد الذي خُيل له أنه الوصي والقيم والقائد ، حتى راح به الخيال بعيداً لضم من اعتقد إنها من تبعية ارضه وشعبه ، فكانت الضربة التي أماتت وجاءت على الأرض والشعب والحرث والنسل ، فعاد العراق محتلاً بعد أن كان رائد الاستقلال بين أشقاءه وجيران الإقليم .

ويحدثونك عن الاستقلال بعد الاحتلال وأرض العراق متاحة على من ظلت عصية عليه على طول عمر العراق المديد ، واللافت أن الاجتياح والأرض المباحة لم تعد سراً مقصوراً على اصحاب العقل اللبيب ومتخذي القرار ، بل راح العامة من البسطاء يحدثونك عن مقار دول واجهزة اجنبية ، ووسائل الإعلام تتناقل وتنقل وتلتقي ، والقرار العراقي يتردد بين هذا المحور وذاك والساسة من اصحاب القرار يصرحون ولا يلمحون أنهم ضمن هذا المحور او ذاك ، ونصفهم يقضي عطلته الأسبوعية بضيافة ولي نعمته او صديقه الذي نصبه واحتمى به ، ويحدثونك عن السيادة واستقلال القرار ، أما قادته من العسكر فانقسموا بين من أقامت أسرته خارج الوطن ، وبين من حمل جنسية الآخر ، وبين من ابت وطنيته هذا وذاك فراح يقضي راحته الأسبوعية في دول الاستجمام بلحاظ أن لجسده وعقله حق ، أما من حمل العقيدة العسكرية هماً ومبدأ ، وقدس شرف العسكرية فراح مغضوب عليه ، المنصب الأعلى حلم ، والرتبة الأعلى باستحقاق لا حديث يدور عنها ، الحجابات مكان واجبه ، والأماكن الأكثر خطرا مستقره ، العقوبة تتهدده والإحالة على التقاعد المبكر مصيره ، ويسألونك عن الإخفاق العسكري والتقهقر المهني والانسحاب المبدئي ، لك رب كريم يا عراق ، هذه ليست نكستك الأولى ، ولا تقهقرك الأول ، ولا خذلانك المستحدث، قضيت جل تاريخك تدافع وتقاتل وتذود ، شعبك يقتل ، ومالك يهدر ، وأرضك تهدم وشجرك يحترق ، والآخر ، يختبأ ويستتر ويحرض ، يدفع عن شعبه ويحفظ ماله ويصون ارضه وينمي شجره ، ألا أن التاريخ يكتب ويؤرشف ويدون ، لكل تاريخه وارثه وذكره ، العراق باقٍ وحكاموه زائلون ، والسعيد من قرأ التاريخ واتعظ به .

علي الشكري
بغداد

أضعف الإيمان السياسي

عندما يجري اعلامك و انت المسؤول التنفيذي الاول عن هدف و موعد هدف سيجري قصفه بعد وقت، هذا يعني ان البيت الابيض- تحديدا حول ضرب مقر لحزب الله – يمضي ارادته ويخبر المسؤول الاول التنفيذي" رئيس الوزراء" عادل عبدالمهدي من باب اننا نعرف ان لا سيطرة لك على التنظيمات، لكن غير المفهوم بمكان هو عدم اتصال عبدالمهدي لتقليل حجم الخسارة بالارواح، و بالتالي تخفيف ردة الفعل التي جعلت هادي العامري و قيس الخزعلي يصلان للتظاهر امام السفارة بعد حرق مرأبها و رميها بقنبلة حارقة و رد حراسها على المعتصمين و نشر حماية اخرى للمبنى الدبلوماسي الامريكي.

ان يستنكر قادة الاحزاب بموقف متباين- بعضهم استنكر خرق السيادة من قبل واشنطن و بعضهم عبر عن انفلات السيطرة العراقية على مقاتلين هم اقرب للانموذج العقائدي الايراني- فذلك لم يمنع و لن يمنع صراع واشنطن وطهران على اراض عراقية، لكن ان يصدر الاستنكار من رئيس الوزراء المستقيل و هو يعلم قبل الحدث بما سيحدث فذلك امر يختصر طريقة تفكير عبد المهدي و حقيقة الوضع الحكومي الان!

غير معلوم و لا حتى في البيان الرسمي الصادر عن مكتب رئيس وزراء تصريف الاعمال هذا التقطير في بث المعلومات غير المتسلسلة و المخفي بعضها، فهو استنكر الحدث، ثم لما صرح الامريكون انهم اعلموه، اصدر بيانا يؤكد علمه بنية القصف قبل ساعات، ثم عاد و استنكر واعلن الحداد!

ربما فكر المتضررون من العقوبات الاقتصادية المفروضة قبل اسابيع استثمار القصف الاخير لتكرار حادثة جرت في طهران بعد وصول الخميني للسلطة حيث جرى اقتحام السفارة، لكن المعطيات القديمة صعبة التكرار، فلا ترامب هو ريغان، و لا عادل هو الشاه المغادر و لا المقتحمون بمثل قوة حرس الثورة.

لكن عادل ربما- اقول ربما- اراد استثمار الحدث ولو بربح بسيط يظهر تدهور الوضع بعد استقالته، لكن واشنطن، احرجته لما قالت انه يدري، و رأى المنكر فلم يغير لا بيده و لا بقلبه، بل بلسان مكتبه وفي السياسة هذا اضعف الايمان.

شامل بردان
أربيل